المحاضرة الثامنة "الجزء الأول"

التعليم والعلوم فى الحضارة البيزنطية

من الأقوال الشهيرة للقديس بازيل الكبير : "علينا أن نبذل كل ما في طاقتنا للنزول الي معترك الحياة المسيحية وينبغي علينا ان نعاشر الخطباء والشعراء والمؤرخين وغيرهم من الذين يمدوننا بالمساعدة لتثقيف أنفسنا كما أن القديس جريجوري اعتقد أن هؤلاء الذين لديهم الاحساس بالمعرفة يدركون ان التعليم هو اثمن ما نملكه ، ومن هنا كان الحصول علي قسط مناسب من التعليم يعتبر هدفاً لك كمواطن بيزنطي" .

لقد اصبحت المسيحية ديناً في عهد الامبراطور قسطنطين ثم ديناً رسمياً للإمبراطورية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الاول ولكن ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل ذلك . وربما وجد رجال الدين قليلو المعرفة أن العلوم والمعارف الوثنية القديمة نوعاً من الردة الي الوثنية ، ولكن كبار رجال الدين المسيحي من الرهبان والقساوسة لم يجدوا ما يدعو الي الابتعاد عنها . حتي االأباطرة البيزنطيين أنفسهم كان لدي الكثير منهم رغبة قوية في الاهتمام بالجامعات وزيادة عدد الاساتذة والعمل علي جمع المخطوطات الأدبية اليونانية وغيرها ، وحينما وجه الامبراطور جوليان المرتد ضربه إلي كل ما هو مسيحي داخل الإمبراطورية خاصة الكنيسة ، ومنع المسيحيين من التدريس في المدارس لكنه لم يمنع الآباء الأوائل للكنيسة الميسحية .

تعليم الصبية والشباب فى المجتمع البيزنطى

كان الصبي في الإمبراطورية البيزنطية يبدأ في تعلم القراءة والكتابة منذ حوالي الخامسة أو السادسة من عمره ، حيث كان جميع الوعاظ في الكنائس يشجعون الآباء علي تعليم اولادهم ، وغالبا ما كان يتولي هذه المهمة الرهبان . وكانت المادة الرئيسة التي يتعلمها الصبي هي مادة النحو . وكان النحو في تلك الأيام لا يقتصر علي تصريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجملة ، بل كان يضم أيضاً دراسة الآداب القديمة .

وحقيقة الأمر ان الصبي كان يبدأ بتعلم قراءة الجملة ، ثم تفسير الكلمات الصعبة ، والإشتقاقات الصرفية في الجملة ، والمعني العام الذي يقصده الكاتب في العبارة وقيمتها الأدبية باستخدام المعاجم وبعض الشروح . وكان هذا الصبي يبدأ بدراسة اشعار هوميروس وهو الشاعر اليوناني الوثني صاحب محلمتي الإلياذة والاوديسة قبل ان يقرأ للشعراء الآخرين ويخبرنا سينيسيوس الذي عاش في القرن الخامس ، في احدي رسائله وهو يفتخر بذلك ان ابن اخته كان يحفظ في اليوم الواحد خمسين بيتاً من أشعار هوميروس ، وأنه يكررها دون تخبط .

والحال نفسه في مصر فقد ورد في إحدي البرديات وهي رسالة من أم لإبنها تنصحه بأن يبحث عن مدرس جيد حيث يتلقي العلم وتطلب منه ألا يتخلي عن دراسة

أشعار هوميروس الا بعد ان يبلغ الكتاب السادس . وفي بردية أخري توضح لنا كيف كان المدرسون يشرحون للتلاميذ أشعار هوميروس ، وفي متن البردية ، تري شرحاً للكلمات الصعبة باللغة اليونانية الدارجة في مصر .

كما ان المؤرخة البيزنطية آنا كومنينا ايضاً كانت تقتبس من أشعار هوميروس في كتابها الألكسياد دون إشاره لذلك وكأن الامر اصبح مألوفاً لدي القراء . وهذا يدل علي ان المواطن البيزنطي كان يقرأ القصائد لشعراء آخرين ، كما كان إمتحان التلاميذ في هذه السن المبكرة لا يخلو من اسئلة تتعلق بما جاء في الإلياذة والأوديسة، ويبدو أن مشكلة حمل التلميذ للكتب كانت ظاهرة قديمة ، فكان يصاحبه عبد يحمل له حقيبته الثقيلة ، كما أن البعض كان يشتكي ايضا من غلاء اسعار الكتب وإلي جانب ذلك كان علي الأطفال في دراسة الجانب الديني وكان يتولي أمره رجال الدين وقد يتطلب الأمر ان يقوم التلاميذ بحفظ الإنجيل تماماً وبذلك سار التعليم الديني إلي جانب التعليم الدنيوي ويلاحظ ان التعليم في هذه المرحلة وما بعدها كان يتم باللغه اليونانية واعتبرت اللاتينية لغه البرابرة .

وبعد وصول التلميذ الي سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة ينتقل الي علم البلاغة ويدرس كتب النثر مثل ديموستين وهيرودت وسقراط وليسياس وكان بعض هذه الكتب يحفظ علي ضهر قلب ، وكان التعليم يتم من خلال قراءة جانب من هذه المؤلفات بصوت عالي لتظهر بذلك مقدرة الصبي علي فهم ما يقرأ وعندما يعود الطالب الي بيته

عليه ان يتدرب علي القراءة بصوت مرتفع ، حتي يردده فيما بعد علي أسماع أساتذته وزملائه في فصل الدراسة .

ثم تأتي المرحلة التي يقوم فيها التلميذ بكتابة موضوعات بسيطة او يتناول شخصية من الشخصيات البارزة في التاريخ إما بالمقارنة مع بعضها البعض او المدح أو الهجاء أو يكتب في موضوعات عامة . ثم تأتي مرحلة كتابة الرسائل وهي فن علي التلاميذ ان يتعلموه ويجب ان يتجلي في هذه الرسالة شخصية كاتبها وان تكون قصيرة سهلة اللغه مع وضع الامثلة المناسبة التي يقتبسها الكاتب من البلغاء ، وكان المدرس يختار من هذه الرسائل أفضلها ويتولي كاتبها قراءتها بصوت مرتفع في المدرسة تشجيعاً لزملائه علي ان ينهجوا نهجه . وكان التلاميذ يتنقلون من مدينة الي اخري فمن الاسكندرية الي غزه والي صيدا والي بيروت والي أثينا .

دور الطالب والأستاذ فى عملية التعلم بالمدارس البيزنطية

كان الاستاذ كان يجلس في مكان مرتفع نسبياً اما التلاميذ فكانت مقاعدهم منخفضة والسنة الدراسية تبدأ في الخريف وتستمر حتي بداية فصل الصيف كما هو الحال في أيامنا هذه . وكانت الدروس تلقي في الصباح وفي المساء كانت هناك بعض المحاضرات العامة كجانب ثقافي للمواطنين . أما في الاعياد الرسمية سواء الدينية او غيرها مثل ميلاد االأباطرة أو تتويجهم فكانت الدراسة تعطل فيها وكانت بعض الأيام تخصص اثناء الدراسة لإبراز مواهب الطلاب في الخطابة كما كان الاساتذة يقدمون

نماذج للتلاميذ وفي هذه الحالة يسمح لأولياء الأمور والأصدقاء بالحضور . وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة دراسة الفلسفة والفنون الأربعة وهي الحساب والهندسة والموسيقي والفلك ، وبعد ذلك تكون دراسة القانون والطب وعلم الطبيعة . ويرجح ان التعليم كان يتم عن طريق المدارس التي تتولي أمرها الحكومة أو عن طريق مدرسين خصوصيين ومن المدارس التي ذكرتها المصادر المدرسة التي أنشأها الامبراطور قسطنطين في الرواق ثم نقلها ابنه قسطنطينوس الي الكابيتول الذي بني علي التل الثاني من تلال القسطنطينية . ومع تولي الامبراطور جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م) أوقف او الغي التعليم المسيحي في هذه المدرسة وأعاد المدرسين الوثنيين للتدريس في المدارس .

وفي عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) وهو فترة طويلة نري ان هذا الامبراطور كان تحت وصاية اخته بلاخريا في بداية الامر ثم تزوج من يودكيا الاثينية وهي ابنة استاذ البيان الوثني في جامعة أثينا وكان لها تأثيراً علي الامبراطور فطلبت منه إنشاء مدرسة لتدريس العلوم الدينية والكلاسيكية وهذه المدرسة ستتحول الي جامعة في مرحلة قادمة . وقد قام بالتدريس فيها مدرسون من اليونانيين لتدريس النحو اليوناني ومن اللاتين لتدريس النحو اللاتيني وخمسة من أساتذة الفلسفة اليونانية وثلاثة من أساتذة الفلسفة اللاتينية واثنان من رجال التشريع والي جانب ذلك وجدت مكتبة عامة يقال ان كان بها مائة وعشرون الف مجلد وهي المكتبة التي اسسها الامبراطور جوليان المرتد ، ووضع فيها ما أمكنه من الكتب الكلاسيكية ولكن هذه المكتبة أحرقت بعد ذلك بما فيها من كتب لها فكر وثني . ويلاحظ ان التعليم في

المرحلة التالية من الزمن اصبح مسئولية الكنائس والاديرة لأننا لا نري ذكر للمدرسة بعد عهد جستنيان فقد أغلق مدرسة أثينا وصادر اموالها وانه لم يسمح بتعليم القانون إلا في القسطنطينية وروما وبيروت واشترط ألا يقوم بالتدريس في هذه المدارس غير أساتذة مسيحيين.

مدارس الأديرة بعد القرن السابع الميلادى

لقد قل التعليم كثيراً في القرن السابع الميلادي ومن هنا كان من يريد التعلم يدرس علي ايدي مدرسين خصوصيين بالاضافة الي ما تقوم به الكنائس والاديرة وحتي المدرسة التي شيدها الامبراطور هرقل كانت تحت اشراف الكنيسة ، وبدأنا نقرأ من مدارس ملحقة بالأديرة وكنيسة الاربعين شهيداً وكنيسة الرسل ، وهي مدارس كان التعليم فيها علمانياً . ويلاحظ ان الكنيسة بدأت التضييق علي التعليم العلماني لما له من ماضي يرتبط بالوثنية ، وقد زادت شكوك الكنيسة في التعليم العلماني اثناء فترة تحطيم الأيقونات ونلاحظ انه بعد هذه المرحلة كانت الكنيسة اقل خوفاً علي الديانة المسيحية ومع تحسن العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي بدأت الإمبراطورية تهتم بالعلوم الاسلامية الدنيوية.

وبعد هذه المرحلة حدث انتعاش في العملية التعليمية وظهر رواد أوائل مثل فوتيوس وهو العالم والفليسوف المثقف الذي درس في دير ستوديوم علي يد كبار رجال التعليم في الإمبراطورية والرجل العسكري الذي رافق العديد من العمليات العسكرية والذي اصبح سكرتير الإمبراطورية البيزنطية ، وهو السفير الذي ارسل الي بغداد حوالي عام

٨٣٨م في عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) ومن الواضح ان ذلك كان في المرحلة الحرجة التي قام بها الخليفة المعتصم بغاراته علي آسيا الصغري ، وفوتيوس بطريرك القسطنطينية مرتين ٨٥٨- ٨٧٦م ، ٨٧٧-٨٨٦م ، وهو صاحب القطيعة الصغري بين كنيسة روما والقسطنطينية في عام ٨٦٧م ، والذي كانت له صولات وجولات في المجامع الدينية والي جانبه كان يوحنا النحوي بطريرك الإمبراطورية (٨٣٧-٨٤٣م) .

جامعة القسطنطينية

كان الفضل لإعادتها او انشائها في صورة جديدة يرجع الي القيصر بارداس وهو أخو الامبراطورة ثيودورا ام الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) وبالتالي فهو خال الامبراطور نفسه الذي كان قاصراً عند وفاة ابيه الامبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) . ورغم ان بارداس كان له تطلعات سياسية الا انه كان مفكراً محباً للعلوم والآداب وحامياً للعلم والعلماء ومن هنا جاء اهتمامه بإعادة إحياء جامعة القسطنطينية وتدريس العلوم الدينية المسيحية والعلوم الكلاسيكية ، واستعد بارداس لذلك واستدعي علماء زمانه الي القصر ، وجمعهم في مدرسة عالية في العاصمة البيزنطية اطلق عليها اسم الماجناورا .

والحقيقة ان جامعة القسطنطينية اصبحت اهم مركز للتعليم البيزنطي وقام بالتدريس في هذه الجامعة نخبة من كبار العلماء مثل ليو الرياضي وهو رجل موسوعي وكان يدرس في المدرسة الملحقة بكنيسة الاربعين شهيداً .

وبعد هذه المرحلة زاد العلم والعلماء انتشاراً حتي اننا نجد البلاط البيزنطي اصبح مزاراً للعلماء ولعل ذلك مرجعه ان فترة إقصاء أو إبعاد مما أباطرة العصر المقدونى وخاصة قسطنطين السابع الي وضع عدة مؤلفات منها "إدارة الإمبراطورية" وكتاب ا"لمراسم" وكتاب "الثيمات" ومما لا شك فيه انه جمع حوله في البلاط عددا من العلماء المساعدين ، ولذلك كاد البلاط البيزنطي ان يصبح اكاديمية لدراسة التاريخ .

وللأسف ان الدراسة بعد هذه المرحلة قد توقفت ويقال ان الامبراطور بازيل الثاني هو المسئول عن ذلك وكان يرى أن الافراط في التعليم كثير النفقة ولم يعد علي الإمبراطورية بشئ ، ومع بدايات القرن الحادي عشر كان من يريد العلم ان يتولي أمره بنفسه ، أو أن يعتمد علي بعض المدرسين الخصوصيين أو في مدارس الكنسية او الاديرة . وفى عهد الامبراطور رومانوس الثالث (ارجيروس) (١٠٢٨-١٠٣٤م) نري ان هذا الامبراطور الذي كان مثقفاً ويفتخر بذلك لم يقدم شيئاً الي العملية التعليمية ولكن هذا الامر لم يدم طويلاً ففي عهد الامبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٥م) نجد ان الحال قد تغير كثيراً فقد استاء هذا الامبراطور عندما علم ان جميع رجال القانون الذين يعملون في سلك المحاماة قد علموا انفسهم بأنفسهم ، وادرك ان مثل هذا التعليم لا يصل الي الدرجة المطلوبة مع أهمية الدراسات القانونية فأسس مدرسة للحقوق في عام ١٠٤٥م ، واشترط حصول المحامين علي اجازة هذه المدرسة حتي يتمكنوا من مزاولة أعمالهم .

كما أعاد الدراسات الكلاسيكية الي جانب الدراسات الدينية ، وفي هذه المدرسة اصبح المؤرخ ميخائيل بسلوس استاذاً للفلسفة والقاضي يوحنا كزيفيلين استاذاً للقانون وقد ظلت هذه الجامعة حتي سقطت الإمبراطورية في أيدي قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م. والمتتبع للحركة العلمية منذ انشاء هذه الجامعة سيجد ان الأباطرة عملوا علي تسهيل العملية التعليمية ويري ان الامبراطور الكسيوس كومنين قد انشأ مدرسة للأيتام كما ان الجامعة والمدارس كانت تحت اشراف الدولة ويرأسها الامبراطور . فكان هو الذين يعين المدرسين ويتولي دفع اجورهم ويعزلهم اذا تقاعسوا عن اداء مهامهم . وتذكر المصادر ان الإمبراطور كان يقوم بالتفتيش علي الجامعات والمدارس بنفسه ويختبر التلاميذ والطلاب وقد يستمع الي بعض المحاضرات ولا زالت المصادر تذكر ان الامبراطور ميخائيل السابع دوكاس (١٠٧١-١٠٧٨م) ، كان في الجامعة وتتلمذ علي يدي المؤرخ ميخائيل بسلوس واستمع إليه . ومن هنا كان بسلوس هو المستشار للإمبراطور بعد ذلك .

وفيما يتعلق بالكتب والمكتبات فقد كان وجودها من الصعوبة بمكان فمنذ عام ٤٧٦م لم يكن في الامبراطورية مكتبة عامة ولكن الاديرة وما كان بها من مخطوطات قد عوض هذا النقص كثيراً وكان يسمح للجميع بالدخول اليها واستخدامها ، ولقد لعب الناسخون من رجال الدين والعلمانيين دوراً كبيراً في زياده عدد الكتب وقد زينوها بالصور ، ورغم هذا كله فقد كانت الكتب غالية الثمن . وقبل عام ١٢٠٤م كانت الحركة التعليمية والدراسات الكلاسيكية قد بلغت شأناً ولكن الصليبيين وما قاموا به من أعمال

النهب داخل المدينة قد أضاعت الجهد الكبير الذي أقامه البيزنطيون من أجل النهضة العلمية عندما أضرموا النار في المدينة بما فيها المكتبات .

ورغم ما اصاب الإمبراطورية البيزنطية من ضياع سياسي ، الا ان الحياة العملية قد ظلت حية في داخل الإمبراطورية الي حد ما ، وسرعان ما تركزت حول بلاط الإمبراطورية في منفاها بمدينة نيقية عندما نقلت جامعة القسطنطينية اليها . ويؤكد ذلك ان الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية بلدوين الأول (١٠٤-١٢٠٥م) قد طلب من البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) ان يصرح له بإقامة مدرسة لاتينية أي علي نمط الطراز الأوروبي ولكن جامعة باريس أفسدت هذا المسعي حتي لا تكون منافسة لها .

وفي جامعة نيقية نجد العالم بليميداس الذي تعلم علي يد مدرسين خصوصيين بعد سقوط القسطنطينية ، وقد نجح هذا العالم في جمع عدداً كبيراً من المخطوطات من أنحاء البلاد ، وقد نجح ايضاً في الارتقاء بمستوي التعليم في جامعة نيقية . وتحدثنا المصادر عن المؤرخ جورج أكروبوليتا (١٢١٧-١٢٨٢م) وهو من أشهر الشخصيات العلمية والسياسية في هذه الفترة وقد درس في جامعة نيقية اذا جاز لنا هذا المسمي ثم في جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م ، ويذكر ان أكروبوليتا هذا كان يري ان سبب الخسوف هو وقوع القمر بين الشمس والارض ولكن هذا الرأي لم يعجب إيرين زوجة الامبراطور يوحنا فاتازيس (١٢٢٢-١٢٥٣م) ولكنها اعتذرت لهذا الرجل وهو العالم المؤرخ والسفير والمستشار الأعظم للامبراطورية في المنفي والذي عاد للتدريس في

جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م ، والذي مثل الإمبراطورية في مجمع ليون بفرنسا عام ١٢٧٤م .